مجلة جامعة الملك سعود، م ٢٢، الآداب (٢)، ص ص ٣٥٩-٣٧١، الرياض (٢٠١٠م/١٤٣١هـ)

ملامح المكان الخارجي في الرواية النسائية السعودية ودلالاته

معجب بن سعيد العدواني
قسم اللغة العربية وآدابها، *كلية الآداب، جامعة الملك سعود،*
الرياض، المملكة العربية السعودية
(قدم للنشر في ٩/ ٢/١٤٣١هـ، وقبل للنشر في ١٤٣١/٤/٢٥هـ)

ملخص البحث. يُعدُّ المكان الروائي مكوناً فاعلاً في الرواية السعودية بصفة عامة والنسائية خاصة، وله دلالاته التي يمكن أن تتجلى بعد التصنيف والفحص، وقد لاحظ الباحث في دراسة سابقة أن المكان في الكتابة الروائية النسائية المحلية يمكن أن يصنف إجمالاً في أبعاد ثلاثة: المغلق والمنفي والأسطوري. أما المكان الروائي الخارجي فقد ظل مقصوراً على بعض الأعمال النسائية المبكرة، ثم تنامى هذا النوع بعد صدور عدد من الروايات الحديثة ما شكل ظاهرة تستدعي الدرس والتحليل، إذ غلب على معظم الأعمال الروائية الحديثة، متصلاً بمنجز "سميرة خاشقجي" الروائي ليشكل حركة دائرية استهلت به الرواية النسائية ولم يلبث أن عاد إليها.

لذلك كانت محاولتنا لاستكمال ماتم إنجازه واستقصاء ذلك النوع الجديد، فاستهداف المكان الروائي الخارجي كمنطلق أولي للدراسة النقديّة في ذلك المتن الروائي سيكون مدخلاً مناسباً لفتح آفاق هذه الأعمال واستنطاقها من خلال محاولة السعي إلى تركيب صورة تكاملية لذلك المكون ربما أوجدت تصوراً عاماً عن الرواية النّسائيّة السعودية بوصفها نصّاً واحداً يسعى إلى الاستقلالية والتميز، ويؤكد تصوراته الشعرية الجديدة انطلاقاً من البحث في وظيفة المكان الروائي وجمالياته.

يحاول هذ البحث أن يركز أولاً على تتبع ووصف هذه الظاهرة من خلال دراسة أعمال روائية نسائية وظفت هذا النوع، ومن ثم محاولة تأويلها اعتماداً على أبعاد نصية باستحضار العلاقات المهمّة التي تصل المكان الخارجي ببقية العناصر السردية الأخرى، واستلهام الجانبين الفلسفي والاجتماعي اللذين أسهما في تشكيل هذا الجنس الأدبي.

مدخل

يُعدُّ المكان الروائي مكوناً فاعلاً في الرواية السعودية بصفة عامة والنسائية خاصة، وله دلالاته التي يمكن أن تتجلى بعد تصنيف وفحص عدد من الأعمال التي تمثل اتجاهات مختلفة من الكتابة الروائية. لذا كانت محاولة إجابة سؤال البحث الذي يفترض تحولات المكان من أنواع سبقت دراستها إلى نوع آخر نرمي إلى فحصه وتحليله. في دراسة سابقة تناولت الأعمال الروائية التالية: "رباط الولايا" لهند باغفار، و"اللعنة" لسلوى دمنهوري، و"آدم ياسيدي" لأمل شطا، و"مسرى يارقيب" لرجاء عالم، لاحظ الباحث أن المكان في تلك الكتابة الروائية النسائية المحلية متنوع ومختلف، واقترح تبعاً لتحليله أن يصنف المكان في المتن الروائي النسائي إجمالاً في ثلاثة أنواع: المغلق والمنفي والأسطوري،[1] أما النوع المستهدف هنا فهو المكان الروائي الخارجي الذي ظل مقتصراً على بعض الأعمال النسائية المبكرة جداً؛ فقد كان لسميرة بنت الجزيرة (سميرة خاشقجي) في أعمالها (ودعت آمالي ١٩٦١م)، و(ذكريات دامعة ١٩٦٢م) و(بريق عينيك ١٩٦٣م) و(قطرات من الدموع ١٩٧١م)، (وراء الضباب ١٩٧١م)، (مأتم الورود ١٩٧٣م)، وهند باغفار في عمليها (البراءة المفقودة ١٩٧٢م) و(رباط الولايا ١٩٨٨م)، وهدى الرشيد في عملها (غداً سيكون الخميس ١٩٧٦م) فضل انطلاق الكتابة الروائية السعودية، وكان المكان الخارجي حاضراً بقوة في معظم تلك الأعمال.

تنامى تفعيل المكان الروائي الخارجي بعد صدور عدد كبير من الروايات النسائية بعد عام ٢٠٠٠م التي شكل كثافة انتشارها ظاهرة تستدعي الدرس والتحليل؛ أما المكان الخارجي وتفاصيله فقد شاع في معظم الأعمال الروائية الحديثة الصادرة منذ ٢٠٠٥م، متصلاً بكتابة "سميرة خاشقجي" الروائية ليشكل حركة يمكن أن توصف بكونها دائرية استهلت بها الرواية النسائية ولم يلبث أن عاد إليها. ولذلك كان السعي إلى استكمال ما تم إنجازه، واستقصاء هذا النوع القديم/ الجديد، ذلك أن استهداف المكان الروائي الخارجي بوصفه منطلقاً أولياً للدراسة النقديّة في ذلك المتن الروائي يبدو مدخلاً مناسباً لفتح آفاق الكتابة النسائية واستنطاقها من خلال محاولة السعي إلى تركيب صورة تكاملية لذلك المكون، وربما أسهم هذا البحث مع سابقه في إيجاد تصور عام عن ذلك المكون السردي المهم في الرواية النّسائيّة السعودية.

إنها محاولة تنطلق من البحث في وظيفة المكان الروائي وجمالياته في ذلك المتن. ولذلك كان السعي إلى التركيز أولاً على تتبع ووصف هذه الظاهرة من خلال

---

(١) معجب العدواني، تشكيل المكان وظلال العتبات، جدة، النادي الأدبي، ٢٠٠٢م، ص ص ٣٣-٦٢، وقد نشر هذا البحث بعد إلقائه في مؤتمر الأدباء السعوديين الذي أقيم في مكة المكرمة في عام ١٤١٩هـ.

دراسة أعمال روائية نسائية وظفت هذا النوع، ومن ثم محاولة تأويلها اعتماداً على أبعاد نصية باستحضار العلاقات المهمّة التي تصل المكان الخارجي ببقية العناصر السردية الأخرى، واستلهام الجانبين الفلسفي والاجتماعي اللذين أسهما في تشكيل هذا الجنس الأدبي.

ويتضمن المتن المستهدف بالدرس والتحليل خمسة أعمال روائية نسائية، منها ما يتصل ببواكير الكتابة في الرواية النسائية مثل: "ودعت آمالي" و"بريق عينيك" لسميرة خاشقجي، ومنها ما يمثل مرحلة حديثة ومعاصرة مثل: "ستر" لرجاء عالم، و"بنات الرياض" لرجاء الصانع، و"سيقان ملتوية" لزينب حفني.

المكان بوصفه رائداً ثم قائداً في الكتابة الروائية السعودية

في البدء تتجلى أهمية الإشارة إلى دور المكان، وحضوره الفاعل والمؤثر في الرواية السعودية بصفة عامة، إذ تتم ملاحظة توضعه في هذا المتن في ظاهرتين اثنتين تبدوان مختلفتين، لكنهما تتوافقان في اتصالهما بهذه الكتابة، وقد تتفاوت هاتان الظاهرتان في الموقع، لكنهما تتفقان في التأثير، حيث تؤكد الظاهرة الأولى الريادة الفعلية للمكان في الرواية السعودية، وعظم دوره في نشأتها، أما الظاهرة الثانية فتؤكد قيادة المكان بوصفه بنية مؤثرة على العنوان الروائي، ومن ثم كانت مؤثرة على كافة الأعمال المنجزة التالية حديثاً، وبين تلك الريادة المبكرة زمنياً وهذه القيادة الحديثة نسبياً تكمن ضرورة قراءته وأثره في تشكيل الكتابة الروائية.

تشير الظاهرة الأولى إلى كون المكان رائداً عوضاً عن الذوات، إذ يمكن أن نستلهم بدايات تكون هذا الفن الروائي، وما يتصل بمعالجات النقاد والدارسين المهتمين بالبحث في البدايات، وتحديد الأولية وتقصي الريادة، فقد أشارت دراسات عدة إلى ريادة عبدالقدوس الأنصاري وسميرة خاشقجي في الكتابة الروائية، إلا أن بعض الباحثين قد أخذ على أعمال خاشقجي مأخذ البيئة، إذ لاحظ بعض الباحثين أن أعمالها تنتمي إلى بيئات مختلفة وبعيدة، ومن ثم فقد خلقت أحداثاً وشخصيات وقضايا توشك أن تكون منفصلة عن البيئة المحلية،[(٢)] وفي ذلك إلماح إلى غياب الوطن في إنتاجها الروائي، لكن ذلك كله لا يقلل من قيمة الكاتبة خاشقجي بوصفها ناشطة في الكتابة، وتبني هموم المرأة العربية بصورة عامة، كما يتجلى ذلك في إصدارها المجلة النسائية الشهيرة (الشرقية) في السبعينيات، إلى جانب ذلك فإن التركيز كثيراً على درس جانب الريادة، قد لا يقدم إضافات مهمة إلى تحليل النص الروائي، وربما بدا الاهتمام بإضاءة ملامح أخرى أكثر جدوى وفاعلية، ولنا في نقد الرواية العربية

---

(٢) حسن حجاب الحازمي وخالد بن أحمد اليوسف، معجم الإبداع الأدبي في المملكة العربية السعودية: الرواية مدخل تاريخي ودراسة ببليوجرافية ببلومترية، الباحة: نادي الباحة الأدبي، ٢٠٠٨م، ص ٢٥.

مثالاً يُقتدى، فلا تزال ريادة الرواية العربية – على سبيل المثال - تتأرجح في دراسات مؤرخي الأدب العربي من روائي إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، ومن دارس إلى آخر.

ليست الرواية السعودية بعيدة عن هذا التتبع الذي يبدو مهماً للتاريخ، وغير مجد للتحليل، ولذلك فإن درس الريادة هنا سيتخذ منحى آخر، إذ يمكن القول: إن الريادة في الكتابة الروائية السعودية: رجالية أو نسائية يمكن نسبتها بوضوح إلى المكان الذي أوجد البيئة المناسبة للكتابة الروائية، فالحجاز هو البيئة الرائدة التي قدمت معظم الكتابات الأولى روائياً، إذ كانت القبيلة الصيغة الأقرب لوصف المجتمع في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، وهي صيغة ذلك المجتمع القبلي الذي يستوحي قيمه وعاداته من أنماط بدائية في تشكيل المجتمعات، وتكرس للعصبية القبلية، ولا تؤمن بقيم الحوار وتمثيلاته، إلا أن الإرهاصات المبكرة للمجتمع المدني قد ظهرت نادراً في بعض المجتمعات، وتجلت بصورة أكثر وضوحاً في مجتمعات المدن المقدسة مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو في مدينة جدة بحكم موقعها الجغرافي البحري وقربها من مكة.

و يمكن النظر إلى علاقة الجنس الروائي بتلك البيئات من جانب آخر، إذ أضحت الرواية الجنس الأدبي الأكثر ملاءمة لتمثيل المجتمعات المدنية أو ما يشابهها، فهي تستوعب تعدد الأصوات، وتتبنى اختلاف وجهات النظر، في حوارية لا يمثلها سوى الرواية بوصفها تجسيداً واضحاً لقيم المجتمعات المدنية ونظمها وغاياتها الإنسانية، أما المجتمعات التي تبنى أنظمتها على أساس فردي أو قبلي أو طائفي فهي غير قابلة لأن تكون ممثلة في أعمال روائية تعتمد على الحوارية. ذلك المصطلح الباختيني النقدي الذي مثّل باكورة الالتفات إلى ملاءمة الرواية لتشكيل المجتمعات المدنية، وتعني الحوارية اعتماداً على باختين نفسه "النظام المعرفي الأبيستمولوجي لعالم مهيمن عليه بالتعددية، بوصفها القاعدة الأساسية المتحكمة في معنى أي ملفوظ".[٣]

(٣) Mikhail Bakhtin, *The Dialogic Imagination, Four Essays*, trans. Caryl Emerson and Michael Holquist, Austin: University of Texas Press, 1981, p. 426.

فاضل باختين بين الشعر والرواية أو النثر في المجتمعات الغربية ووظيفتهما اجتماعياً، وكيف تظهر تلك الحوارية في اللغة أو الخطاب في الجنس الروائي، فاللغة تعمل بصورة متباينة بين الجنسين الأدبيين: الشعر والرواية، إذ تتفاعل الحوارية في هذين الجنسين بصورة متباينة، ولذلك يمكن القول كما يؤكد باختين: إن الرواية أقرب إلى التمثيل الواقعي من الشعر، فيبدو الشعر مثل لوحة فنية تعلق على الجدار، وتبدو الرواية مثل أداة من أدوات المطبخ، فيتصل الشعر بصورة عامة بالوظيفة الجمالية، وتتصل الرواية بالوظيفة التعليمية والعملية، ولا تعد هذه الرؤية مقصورة على باختين فحسب بل تبناها بعض المنظرين المعاصرين، ومنهم هيلين سايكسوس Hélène Cixous التي ترى الرواية نظاماً واقعياً في تمثيلاته، وتعتمد على محاولة ربط دوال اللغة بمرجعياتها، إلى مدلولات واقعية، وهذا بحسب =

وبناء على ذلك جاز لنا أن نؤكد على كون الحجاز هو البيئة المحلية الأقرب إلى تمثيل تلك الصورة ـ آنذاك ـ بين المجتمعات المحلية الأخرى التي لم تلبث أن اختارت الطريق نفسها. لقد تعددت في الحجاز الأطياف، وتنوعت الثقافات منذ زمن طويل، ما جعله يستوعبها ويتفاعل معها، فاقترب ولامس بذلك مجتمع المدينة التعددي، وأصبح قادراً على إنتاج الرواية وقبول حواريتها الظاهرية على الأقل، ولذلك فليس بدعاً أن نشير إلى الحجاز، المكان الذي يبدو رائداً مهد لنشأة الرواية في بلادنا، وسمح لمعظم أطيافه بالتعبير، فأنتج البيئات المناسبة لتلك الأعمال المبكرة، وأخرج لنا تلك الأسماء الروائية المبكرة التي أسهمت في نشأة هذا الفن وإثرائه.

أما الظاهرة الثانية التي أشرنا إليها في هذا العنوان الفرعي وهي ظاهرة تجلي "المكان بوصفه قائداً"، فهي ظاهرة طارئة حديثة، قادت فيه الكتابة الروائية النسائية المنتج الروائي لكلا الجنسين، وتتجلى تلك الظاهرة حين ارتهنت الرواية النسائية إلى توظيف اسم المكان، إذ يرد شطراً من العنوان الروائي، وهو أمر شاع في عدد كبير من عناوين الرواية السعودية بعد عام ٢٠٠٥م، واستهل بالرواية النسائية ممثلة في "بنات الرياض"، ومن ثم ارتكنت معظم الأعمال الروئية الصادرة بعد هذا العام إلى المكان في العنوان، وبذلك كانت قيادة المكان الفعلية والمؤثرة على مستويين اثنين: أولهما يتصل بدور المكان الداخلي بوصفه مركزياً ومؤثراً في البنيات الروائية الأخرى في العمل، وهذه قيادة نصية داخلية، أما المستوى الثاني فهو خارجي، يتصل بقيادته لأعمال روائية أخرى جاءت تالية للأعمال الأولى التي تبنت هذا الاتجاه الكتابي.

ولن يعوزنا أن نورد أمثلة لذلك، فحين نتأمل صدور عدد كبير من الأعمال الروائية التي تستند فيها العناوين إلى أسماء الأماكن، سنجد أن رواية "بنات الرياض" كانت من الأعمال الأولى التي قادت استهلالات ذلك التوجه الكتابي إلى تجسيد المكان في العنونة في أعمال تالية، ثم ما لبثت الأعمال أن بدأت تترى متبنية الاتجاه نفسه مثل: "لا يوجد مصور في عنيزة" لخالد البسام، "لا أحد في تبوك" لمطلق البلوي، "الحمام لا يطير في بريدة" ليوسف المحيميد ...الخ، وسنجد أعمالاً أخرى تختار الاتجاه نفسه، إذ يبدو أن العنوان قد كرس من أجل البعد التسويقي للعمل، وذلك أمر مشروع كثيراً ما يهتم به العنوان الروائي، ولذا كان له دوره في أن تحاول تلك الأعمال أن تتبنى مبدأ العنونة المستندة إلى مكان، محاكاة لرواية "بنات الرياض".

= سايكسوس يصل الخيال بالواقع. ولمزيد من التفاصيل في ذلك انظر:

Mary Klages, *Literary Theory*, Continuum International Publishing Group, 2006, pp. 136-137.

الرواية السعودية خارج الحدود

ليس من النادر أن نجد رواية سعودية تدور أحداثها خارج الوطن، وليس من الغريب أن تقتصر أحداث رواية ما على مكان خارجي، إذ آثر عدد كبير من كتاب الرواية أن يختاروا لشخصياتهم بيئات غير محلية، فمنهم من اقتصر على ذلك المكان، ومنهم من أنشأ حواراً بين الداخل والخارج، فعملوا على مزج جغرافيا العمل، ومن أبرز ملامح ذلك التجاوز إلى خارج الحدود الجغرافية للأوطان ذات الصبغة السياسية وتكسير الفروق، فقد تم تضمين الأحداث السياسية التي حلت بالعالم العربي في أعمال روائية شتى دون تحديد لوطن واحد، وتم استلهام أماكن روائية لا تخضع للجغرافيا السياسية الحديثة، ومن الصعب الإشارة إلى كافة الأعمال التي توجهت إلى هذا الاتجاه، ولكننا سنشير إلى أمثلة من ذلك التناول، فالمكان الروائي لشقة الحرية التي كتبها غازي القصيبي الروائي السعودي هو القاهرة، وتخضع ثقافات شخصيات العمل وتوجهاتهم إلى الهموم القومية العربية، فالبطل والراوي (فؤاد) يراهن على القومية والأحزاب ودورهما في الأمة، ومثله (ماجد) و(يعقوب) وهما ينتميان إلى أحزاب قومية.

وفي أعمال روائية تالية جسدت الرواية النسائية ذلك الإطار الذي رسمه القصيبي إلى حضور وتفاعل مع هموم العرب وقضاياهم، فاستحضرت المكان الخارجي رمزياً، في أحداثه وتفاعلت مع قضاياه، ومن أمثلة ذلك نشير إلى كون موضوع احتلال العراق قد شغل بعض الروائيات فاستحضرن المكان بوصفه حدثاً لا جغرافيا، ومنه ما كتبته نسرين غندورة التي تصف بغداد في كونها "لا ترى فرقا بين طاغية ومستعمر، الأول يجلدها لتركض إلى حيث يوجهها، والآخر يطلقها ولكنه يلف طوق مصالحه حول عنقها... لأن المجد لم يأت إلى بغداد بوصفه عابر سبيل...هذه الأرض تودع حضارة لتستقبل أخرى، واليوم تودع طاغية، وتستعد لتوديع مستعمر، ولا تعد الثاني بأكثر مما حظي به الأول".(٤) وفي السياق ذاته كتبت الروائية السعودية عن الحرب على العراق وسقوط بغداد بوصفه هماً أكبر من الهموم الشخصية التي تعاني منها، ولذلك فهي تستبعد الهم الذاتي وتستعيض بذلك الهم القومي إذ لا بد أن تعاني أولاً من الهم القومي.(٥)

ويُلاحظ أن مصر ولبنان أكثر البلدان العربية استيعاباً لفضاءات بواكير الرواية السعودية عامة، وربما

---

(٤) نسرين غندورة، النهر الثالث، القاهرة، مطابع الأهرام، ٢٠٠٦، ص ٢٧٩.

(٥) على سبيل المثال: "سقطت بغداد... شعرت أن خيباتي الفردية صغيرة أمام خيبات الوطن... شعرت بالخزي أن أحزن لنفسي وبغداد من يحزن لها. أدركت أن قيمة الإنسان في قضيته، لذا عاهدت نفسي أن تكون قضيتي هي عروبتي، بعد أن كنت أنت قضيتي قررت أن أكون حرة في أوطاني فبيدي أن أكون حرة في مشاعري" (سعاد جابر، صمت يكتبه الغياب، القاهرة، الدار المصرية السعودية، ٢٠٠٦م، ص ١١٥).

عاد ذلك لأسباب منها: إقامة الروائي الدائمة في أحد البلدين، وتأثره بالعيش فيه، إلى جانب وجود صلات عائلية قوية تربط بين كلا الشعبين: السعودي والعربي في كلا البلدين، زادت أواصرها قوة وتماسكاً عبر السنين، أما السبب الثالث فيتصل بتزايد السفر إلى هذين البلدين لأهداف تعليمية أو تجارية أوسياحية، أما الدول الأوروبية وأمريكا وشرق آسيا فتأتي تالية في استيعابها لفضاءات بدايات الكتابة الروائية، لكن ازدهار العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية مع الغرب، وتزايد الابتعاث إلى تلك البلدان قد زاد من المساحات المخصصة لها في الكتابة الروائية، وجعلت فضاءات عواصم تلك البلدان مسرحاً لأحداث عدة في روايات الألفية الثالثة ولاسيما النسائية منها.

كانت معظم أعمال خاشقجي مرتكنة إلى مصر مثل "ذكريات دامعة"، "ودعت آمالي"، وكانت أعمال غالب حمزة أبو الفرج الروائية قد خضعت لمقاييس المكان في مصر مثل "امرأة بلا بقايا" و"غرباء بلا وطن"، وربما كانت خاشقجي وأبو الفرج أكثر الكتاب اختياراً لبيئات خارجية لشخصيات رواياتهما، ومن ذلك على سبيل المثال روايات "بريق عينيك" و"وراء الضباب" و"مأتم الورود" لخاشقجي، ورواية "واحترقت بيروت" لأبي الفرج.[٦] ومن ثم تواتر اختيار فضاءات خارج الحدود في العمل الروائي السعودي كما يتجلى في أعمال روائية رجالية، مثل "طائر بلاجناح" و"خطوات على جبال اليمن" لسلطان القحطاني وهما روايتان تتخذان من اليمن وهموم اليمنيين مكاناً ومحوراً.

حرص بعض الروائيين في أعمالهم أن تكون فضاءاتهم خارج الحدود، فقدم القصيبي "شقة الحرية" و"العصفورية" و"سبعة" كأعمال مهاجرة إلى الخارج لكنها بدت موظفة للتلقي الداخلي، أما الأعمال التي آثرت أن تراوح بين المكان في الداخل والخارج فقد تضاعف عدد الأعمال التي تحرص على المراوحة أو المزاوجة بين السفر والإقامة.

لقد كان هذا البعد الكتابي المرتهن إلى خارج الحدود خلال فترة الستينات متصلاً بأزمة الهوية والاتجاهات ذات الميول القومية العربية التي تأثر بها كتاب وكاتبات كثر، وكان تناميها نتيجة الضغوط الدولية على العالم العربي وقيام حروب عدة في الشرق الأوسط خلال فترة تجاوزت ثلاثين سنة منذ قيام الثورة في مصر، ومن هنا يتضح التلازم التام بين المكان والهوية ودورهما في التأثير المضاد وتشكيل العمل الروائي، لكن هذه القاعدة تلاشت بفعل دخول الثقافات الهامشية إلى عصر العولمة، فلم يكتب أحمد أبو دهمان رغم إقامته في فرنسا رواية "الحزام" عن مكان خارجي مثل باريس، بل كتبها عن مسقط رأسه في جنوب السعودية.

ويلاحظ أن بواكير الرواية النسائية السعودية قد ارتضت كتابة موافقة لهذا الاتجاه المرتهن إلى المكان،

---

(٦) حسن حجاب الحازمي، البطل في الرواية السعودية، جازان، نادي جازان، ٢٠٠٠م، ص ٢٢٣.

مع أعمال خاشقجي و"غدا يكون الخميس" لهدى الرشيد، و"البراءة المفقودة" لهند باغفار،(٧) لكنها ما لبثت أن عادت إلى أماكن يمكن وصفها بكونها مغلقة أو منفية أو أسطورية، لقد استمرت هذه الحقبة طويلاً إلا أن الأعمال الروائية النسائية الحديثة تجاوزت ذلك فأصبحت شخصياتها المحورية لا تكتفي بفضاءات داخلية لها، بل تجد فضاءاتها المناسبة خارج الوطن، ومن ثم كان المكان الخارجي في أعمال عدة متصلاً اتصالاً مألوفاً بالمكان الداخلي، فالحدث الذي يبنى عليه السرد في رواية "بنات الرياض" معتمداً على لندن وسان فرانسيسكو وغيرهما لا يختلف كثيراً عن الحدث في الرياض أو المنطقة الشرقية، ولا تبدو بعض الشخصيات متأثرة بالمكان أو متفاعلة معه، وهو ما يبرر غرابته المقترحة في العمل، ويبدو المكان سلبياً وغير فاعل: "كان الغريب في فراس التزامه بالدين على الرغم من قضائه ما يزيد عن عشر سنوات في الخارج، فهو لم يبد متأثراً بالتحرر الغربي أو متأففاً من أوضاع البلد كغيره ممن يقضي بضع سنوات في الخارج فيصبح كارهاً لكل شيء في بلاده، حتى مع كونه من أشد المعجبين به والمدافعين عن سياسته قبل السفر!".(٨)

واعتماداً على ما تقدم من مداخل حول المكان، نقترح تقسيماً ثلاثياً لملامح المكان الخارجي، ومناسباً لما تم إنجازه روائياً بأقلام الكاتبات السعوديات، ويضم هذا التقسيم: المكان الخارجي المغلق، والمكان الخارجي المفتوح، والمكان الخارجي السلبي.

المكان الخارجي المغلق

من المهم أن نشير إلى تلك العلاقة الطبيعية التي نشأت بين توظيف الأماكن الداخلية والخارجية في الرواية المحلية، إذ لا يبدو المكان الداخلي الذي برز في ملامح الإغلاق أو الهامش أو الأسطورية منتجاً للحوار والتعدد، كما لا يبدو المكان الخارجي شكلاً مفتوحاً انطلاقاً من مستوى القراءة الأول، بل يبدو بوصفه شكلاً مغلقاً جديداً، إذ يحمل بناء المكان في رواية "ودعت آمالي" أيضاً ملامح إغلاق جديدة، يمكن أن تتراءى لنا من خلال النظر إلى شخصيات العمل، والشخصية الرئيسة في العمل لا تبدو كذلك، إن (وجدي) بطل مزور مستلب، ويعني أن يكون مزوَّراً ومستلباً في آن أن يتراءى للمتلقي بطلاً سرابياً، لكنه يتكشف بكونه غير أصيل، وذلك لكون البطولة الفعلية للعمل تتوارى خلف اسمه، فهو بطل لا يحضر إلا بحضور أمه الحاضرة في مواقف عدة تتجلى في العمل، فهو حاضر بوجودها وغائب بفقدها، لتتجلى (أم وجدي) بطلاً فعلياً للعمل وذلك للأسباب التالية: هيمنة خطابها على العمل الروائي كله، واستغراق ما

---

(٧) لم تصرح الكاتبتان باسم للمكان في كلا العملين، ويعتقد الحازمي أنهما تنتميان إلى البيئة اللبنانية. الحازمي، ص ٢٢٣.

(٨) رجاء الصانع، بنات الرياض، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٥م، ص ١٦٦.

يزيد على ثلث العمل في بداية الرواية لمزيد من التفاصيل عنها، ولحضورها في حوار ابنها ومونولوجه "كنت أبحث عن شخص ما، يملأ حياتي، يملأ الفراغ الذي تركته لي الأيام أعيش منه بعد موت أغلى حبيب. أخذت أبحث عن هذا الشخص الذي يملأ فراغ حياتي، ويمنحني الحب والحنان"،[٩] وهذا حوار داخلي آخر يؤكد عمق تلك العلاقة "وأخذت أفكر في هذا الخطب العظيم، ذلك الخبر الذي حز في نفسي، أن تدخل غريبة إلى منزلنا، وتحتل مكانة أمي، بغير سابق معرفة وبدون أدنى داع لذلك، وأمي لم يمض على موتها بضع شهور"،[١٠]

تحضر الأم كذلك حين يورد السارد/البطل (المزور) وجدي التفاصيل الصغيرة: "تخرجت من المدرسة فاخترت كلية الطب، ورحبت أمي وأبي باختياري"،[١١] وتحضر في الحوار بين الأب وابنه: "... وبعد أن انتهى من كلامه نظرت إليه متوسلاً وقلت له: أنا لا أستطيع مفارقة أمي، إنها في حاجة إلي، فقال في لهجة صارمة: أمك بخير كلها يومين وتبقى (عال) ... فاستسلمت لأمره ووعدته بالذهاب إلى الكلية"،[١٢] وتحضر الأم أيضاً في حوار وجدي مع الصديق: "أخرجني من صمتي صديق لي في الكلية: إيه ياوجدي، رايح على فين، فضحكت وقلت له: أبداً ده أنا رايح أشتري هدية لماما... فقال متأثراً: إن شاء الله تكون صحتها تحسنت"،[١٣] وفي أفعال ابنها التي تتجلى بعد وفاتها مثل: زيارة الابن قبر والدته "وتركته، وذهبت لزيارة قبر والدتي..."[١٤]، وفي حواره مع المربية (فهيمة): "أبوك يا وجدي أحضر امرأة أخرى، وأمرني أن أجهز لها غرفة المرحومة والدتك، وقال إنها ستبقى معنا، وده يرضي مين بعد المرحومة"،[١٥] وتتواتر مقاطع في العمل لتؤكد ذلك الاتجاه.

إن البطل وجدي سجين رمزي لا يمكنه تجاوز ذكرى أمه ، وتبدو أيضاً الشخصية الرئيسة المقترحة ضمناً (أم وجدي) من قبل الكاتبة سجينة أماكن مغلقة، تبدأ من البيت الذي لا تغادره بفعل الاكتئاب والمرض، ثم تكون سجينة ذاكرة لا تحضر إلا بحضور حديث ابنها أوتأملاته، وتنتهي بالقبر بوصفه السجن الدائم، إنها سلسلة من الأماكن المغلقة التي يراوح فيها أبطال العمل.

وعلى ذلك يمكننا أن نؤكد على كون المكان الموظف هنا يمكن تأطيره بوضوح في إطار المكان الخارجي الذي يوهم بالانفتاح لكنه مغلق، وهو النوع

(٩) سميرة خاشقجي، ودعت آمالي، ط٢، بيروت، منشورات زهير بعلبكي، ١٩٧٩م، ص ٣٧.
(١٠) المرجع السابق، ص ٤١.
(١١) م. ن.، ص ١٣.
(١٢) م. ن.، ص ٢٦.
(١٣) م. ن.، ص ٣٠. .
(١٤) م. ن.، ص ٤٠ .
(١٥) م. ن.، ص ٤١.

الـذي انتمـت لـه بعـض الأعمـال الروائيـة النـسائية في فترات الكتابة الأولى.

المكان الخارجي المفتوح

توشك رواية "بريق عينيك" أن تجتاز بقية الأعمال الروائية لخاشقجي، وقد اختارت لها لبنان لتكون مسرحاً لأحداثها الرئيسة، تشير الكاتبة في نص مواز استهلت به عملها إلى سبب ذلك، فكتبت: "مسرح هذه القصة أرض لبنان... والحب على أرض لبنان أو أية بقعة على هذه البسيطة هو الحب، في روعته وخلوده ومعناه الأسمى، لا ينال من مكان أو زمان"،[١٦] ويشير النص السابق إلى أن الحب لا ينتمي إلى مكان، وبالفعل فقد كان العمل مبشراً بتجربتين عاطفيتين تمر بها (شروق) شخصية العمل الرئيسة، إحداهما داخل لبنان والأخرى خارجه، ولكن كلا التجربتين تبدوان غير ناجحتين، فقد مرت هذه البطلة بتجربتي حب وقعت في أسرهما، الأولى مع زميلها الطيار (وليد)، والثانية مع الشاب الأسباني (كارملو).

إلى جانب ذلك مرت بتجربتين فاشلتين في العمل والزواج، إذ لم يكن حال العمل الذي اختارته بأفضل من أوضاعها الأخرى، فقد حاربت (شروق) لتكون مضيفة جوية طمعاً في الاستمتاع بفضاءات السياحة والحرية، لكنها ما لبثت أن تركت عملها بناء على رغبة الزوج (وليد)، لقد بدت لهفة (ازدهار) حين علمها بنبأ وظيفتها الجديدة في غير محلها " ... يا لحظك ... ستطوفين أنحاء العالم"،[١٧] لكن هذه الرغبة في السفر لم تلبث أن تبددت فهاهي "تصف لبنان وقد ملأها الحنين إلى العودة... لبنان... بلدي... بلد السحر والجمال، عشقته منذ الصغر كما عشقه آلاف غيري...".[١٨]

أما الزواج فقد خلق لشروق ظروف عيش قاسية، ومع أنها حرصت على أن يكون فضاء البحر غير النهائي ملجأ مشكلاتها ومأوى تنهيداتها، يبقى الناتج ومجموع التجربة أسراً دائماً تبحث فيه عن فكاك، إنها تفقد الأمل والرغبة في صنعه، ومن تلك الإشارات نراها تقرأ حياتها التعيسة وتواصل حواراً داخلياً: "إنها إلى الآن لم تعش... نعم لم تعش بأمل ينير لها حياتها فيهبها السكينة... إنها تعيش وحيدة...إنها تعيش بلا شخص يحنو عليها"،[١٩] وأي أسر وقيد أسوأ من الأرق والحرمان والوحدة "ومضت سنة ... عاشت خلالها شروق في أرق وحرمان ووحدة"،[٢٠] ومن خلال ذلك تنقل تلك الأوصاف إلى بطلتها، لتكون شروق دائماً " قلقة... خائفة ... حائرة"[٢١] ومن ثمّ تصل في النهاية إلى الاستسلام والضعف

(١٦) سميرة خاشقجي، بريق عينيك، بيروت، المكتب التجاري، ١٩٦٣م، ص ٧.

(١٧) المرجع السابق، ص ٢٢.

(١٨) م. ن.، ص ٤٨.

(١٩) م. ن.، ص ٦٩.

(٢٠) م. ن.، ص ٨٣.

(٢١) م. ن.، ص ٨٧.

"فاستسلمت للواقع البغيض الذي برز حولها"، (٢٢) فما حولها لا يجلب لها سوى " الضيق والقلق والحيرة".(٢٣)

لقد خلق المكان المفتوح (لبنان) وخارجه (أسبانيا) مزيداً من القلق الذي ينبئ عن تصور ذلك الأسر الكبير والقيد الذي تقع فيه، مع كون البطلة قد توافقت مع كل الظروف وواكبتها، إلا أن جداراً حديدياً منع وصول الفرحة إليها.

المكان الخارجي السلبي

يمثل هذا النوع عدداً كبيراً من الأعمال الروائية النسائية الصادرة بعد عام ٢٠٠٠م، تشكل (لندن) في روايتي "سيقان ملتوية" و"ستر" - على سبيل المثال - مكاناً لبعض الأحداث في الروايتين، تكتب الروائية الأولى زينب حفني من داخل المكان، وتكتب الثانية من خارجه، وكلا المكانين لا يلبيان صرخات الاحتجاج، إذ نلحظ في الرواية الأولى استهلالها برجل الأعمال الأب (مساعد عبدالرحمن)، وهو مقيم بصفة دائمة في لندن، ذلك المكان الذي يطل علينا قبل الشحصيات في بداية العمل، يواصل الأب بحثه عن الابنة المفقودة (سارة) الشخصية الرئيسة في العمل، ثم يحضر الأب رمزياً في نهاية الرواية، بعد أن غادرت (سارة) مع (زياد) هاربة من (لندن) المكان الخارجي في الرواية، فتقول: "سيتفهم قراري وهو يقرأ سطوري، أنني لم أفعل إلا ما فيه سعادتي، أنا واثقة أنه سيكتب قصتي بقلمه الرائع عندما تهدأ انفعالاته، فأنا لم أنس قط تلك القصص التي قرأتها له في بداية مراهقتي".(٢٤) إلا أن هذه المغادرة لا تعني أن يكون ذلك المكان الخارجي سبيلاً إلى الحرية بل كانت قيداً عليها، إن غياب الأب يساوي غياب المكان، والفرار منهما يمثل طوق النجاة المرتجى الذي تظل سارة باحثة عنه.

وفي معظم الأعمال الروائية التي بنيت على المكان الخارجي، نرى المكان سلبياً لا تأثير له، فيغدو السفر إلى سان فرانسيسكو ولندن الذي تقوم به شخصيات "بنات الرياض"، و"سيقان ملتوية" و"ستر" الرئيسة لا يشكل إضافة إلى النص، فالمكان (اللندني) الذي تقترحه زينب حفني ورجاء عالم ورجاء الصانع لشخصيات رواياتهن لا يضيف جديداً، إنه مكان يفقد الإيجابية، وهو ذو تأثير سلبي على الشخصيات، "بهذا الثقل داخلي، لست قادرة على شيء سوى الجلوس هكذا منسية على حافة الماء أو في الماء، محمولة لا أحرك طرفاً. لنستسلم لحقيقة أننا كلنا مقعدون...".(٢٥)

الخاتمـــــة

ينبغي التأكيد أولاً على أهمية أدوار المكان بأنواعه التي سبقت الإشارة إليها في ريادة الرواية أو قيادتها في

(٢٢) م.ن.، ص ١١٥.
(٢٣) م.ن.، ص ١١٦.

(٢٤) زينب حفني، سيقان ملتوية، بيروت، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، ٢٠٠٨م، ص ١٢٦.
(٢٥) رجاء عالم، ستر، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م، ص ١٣٦.

ملامح معينة، ودوره في تحقيق الأبعاد الدرامية والجمالية في كتابة المرأة الإبداعية التي تتميز بتشكلاتها المتسارعة، وبعطائها المتواصل، لكن ذلك لا يلغي سؤالاً يتجلى بعد تلك الجولة السريعة على نماذج من الرواية النسائية السعودية: هل تتوافق كتابة خاشقجي المبكرة مع كتابات الصانع وعالم وحفني الروائية المعاصرة فيما يتصل بالمكان؟ إن إجابة هذا السؤال ستكون على مستويين: مستوى النفي ومستوى الإثبات، فعلى المستوى الأول سيتم نفي التوافق، إذ إن كتابة الصانع وعالم وحفني الروائية خروج من الداخل إلى الخارج، بينما كانت كتابة خاشقجي خروج من الخارج إلى الخارج، أما على المستوى الثاني، فسنؤكد التوافق، إذ يتجلى بصورة واضحة أنه لا يمكن ملاحظة تأثير كبير للمكان الخارجي على الرواية، فقد بدا أن استعارة تلك الأماكن غير مؤثر في منح الشخصيات المزيد من الحرية، فعلى الرغم من ظروف المكان المختلفة تبقى الشخصية غير متأثرة بما يدور حولها، بل تعيش أزمتها المنتجة داخلياً في ذلك المكان، ولا تتأثر بما يدور حولها، إنها أماكن تزيد غربة الشخصيات واستلابها، وتضعها داخل عزلة ذاتية وخارجية، وهي غربة واستلاب تتوافق مع ما يورده غاستون باشلار في كتابه المعروف "جماليات المكان" في نص لسوبرفيل أشار إليه سينيشال في كتابه عن سوبرفيل "السجن من الخارج": "فبعد أن سار سوبرفيل طويلاً جداً على ظهور الخيل في سهول أمريكا الجنوبية المعشوشبة، المترامية الأطراف، كتب يقول: "وبسبب المسيرة اللانهائية على ظهور الخيول والحرية اللانهائية بالتحديد، وبسبب الأفق الذي لا يتغير، رغم ركض خيولنا اليائس، فإن سهل البامبا اتخذ طابع السجن بالنسبة لي، سجن أكبر من السجون الأخرى".(٢٦) يكشف النص السابق عن وضع مشابه في استعارة المكان الخارجي لتدور عليها أحداث رواية ما، إذ لا تنعم الشخصية الرئيسة فيه على الأقل بالحرية المبتغاة، بل تبقى في إطار سجن كبير يزيد من قيد الحرية المتوسلة لتلك الشخصيات، ولا يحقق لها بصيص أمل مبتغى، أو غاية مرجوة.

إن انتقال الجسد إلى أماكن خارجية لا يمكن له تحقيق الحرية أو نيلها، وإن بدا أن تحقيق الحرية يظل رمزياً لا واقعاً، لقد أشار (المهاتما غاندي) إلى نوع الحرية المطلوبة بقوله: "الحرية والعبودية حالتان ذهنيتان"،(٢٧) ويتفق معه مواطنه (نهرو) في كون الحرية حرية القلب والعقل،(٢٨) ولعل ذلك يبرر القول: إن استعارة المكان الخارجي في الرواية النسائية السعودية كان ميلاً إلى تحقيق رغبة ذاتية في التباعد عن المغلق والأسطوري والمهمش، لكن ذلك كله لم يخلق الانعتاق المتوسل، بل ظل انعتاقاً جسدياً فحسب، لا يلبث أن يتلاشى سريعاً سرابه، ويتعاظم ناتج آلامه.

---

(٢٦) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط٣، بيروت، المرسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٧م، ص ١٩٩.

(٢٧) Elizabeth M. Knowles(Ed. & Intro.), *The Oxford Dictionary of Quotations*, Oxford: Oxford University Press, 1999, p. 239.

(٢٨) Jawaharlal Nehru, *The Quintessence of Nehru*, London, Allen & Unwin, 1961, p. 271

The Aspects of the Outer Place in Novels by Saudi Women

Muajeb S. al-adwani
Department of Arabic Language and Literature
Faculty of Arts, King Saud University

(Received 9/2/1431H; accepted for publication 25/4/1431H.)

Abstract. The choice of place has a great effect on the structure of any literary work. Therefore, most modern critics consider place as a gateway through which to approach the narrative and explore the various aspects of a novel. In novels written by Saudi women, place can be classified into four categories: the place of exile, the closed place, the mythical place and the outer place. The outer place can be seen as particularly important in the Saudi feminist novel, because this kind of place appeared in the earliest of their writings, then returned to the novel at the beginning of the new century. Therefore, this paper tries to answer the following important questions: what aspects of the outer place appear in the selected novels? How has place become a central element in these novels? How have links been embodied between place within these novels and the sociocultural structure of Saudi Arabia?

This kind of place can be seen in two periods in the Saudi novel: it first appears in works by Sam»ra Kh«shiqj», whose first published novel, *I Said Goodbye to my Hopes* (*Wada‘tu ªm«l»*) is set outside Saudi Arabia, in Lebanon and Egypt. Secondly, novels written by Saudi women since 2000, *Mantle* (Sitir) by Raj«’ ªl»m, *The Girls of Riyadh* (Ban«t al-Riy«±) by Raj«’ al-¦«ni‘, and *Twisted Legs* (S»q«n Multaw»a) by Zaynab ®afn», are set in European and American cities such as London and New York.